

بسم الله الرحمن الرحيم

القرآن معجزة الله الخالدة، التي أيد الله بها الله تعالى رسوله خاتم النبيين محمدًا ﷺ، وتعهده بحفظها إلى قيام الساعة؛ لتبقى برهاناً حياً على صدق تنزيله من رب العالمين. برهاناً يخاطب كل العقول ويناسب كل الأفهام، كلا حسب ما وُهب من فطنة وما اكتسب من علم. يشعر بجلاله وطلاوته عامة الناس وخاصتهم، ويعجز الفصحاء والبلغاء أن يأتوا بمثله، ويبهر العلماء والحكماء بسمو منطقته ودقة إشاراتهِ العلمية والتاريخية. إلا أن ثمة قاسماً مشتركاً يجمع كل من أصغى بقلبه وعقله فأمن: هو ذلك الشعور بجلال الربوبية في الخطاب القرآني، دون أن يملك المرء أن يصفه أو يحدد مصدره.

وهذه محاولة لاستكناه مكامن جلال الربوبية في أساليب الخطاب القرآني، والتي نحسب ونأمل أن تكون بإذن الله مدخلاً جلياً وأساساً قوياً لدعوة الناس جميعاً على اختلاف لغاتهم وثقافتهم، دون ما حاجة لخوض في جدل فكري أو تحليل علمي أو تحقيق تاريخي، مما لا يملك مفاتحه إلا المتخصصون في هذا أو ذاك.

obeikandi.com

الفريضة المنسية

قال تعالى مخاطباً أمة الإسلام:

﴿كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ﴾ [آل عمران: ١١٠].

﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا﴾ [البقرة: ١٤٣].

﴿إِنَّ الدِّينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنْزَلْنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَأَهْدَىٰ مِنْ بَعْدِ مَا بَيَّنَّاهُ لِلنَّاسِ فِي الْكِتَابِ ۚ أُولَٰئِكَ يَلْعَنُهُمُ اللَّهُ وَيَلْعَنُهُمُ اللَّاعِنُونَ﴾ [البقرة: ١٥٩].

ثم قال لرسوله ﷺ:

﴿قُلْ يَأَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا﴾ [الأعراف: ١٥٨].

﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا كَافَّةً لِّلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [سبأ: ٢٨].

﴿يَأَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ ۚ وَإِنْ لَمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَغْتَ رِسَالَتَهُ ۚ وَاللَّهُ يَعْصُمُكَ مِنَ النَّاسِ﴾ [المائدة: ٦٧].

فبلغنا رسوله وعلمنا القرآن، وفصل لنا مجمله، وبين لنا معالمه، وجسده في سنته نموذجاً عملياً حياً يُقتدى به إلى يوم الدين:

﴿وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَنْفَكِرُونَ﴾ [النحل: ٤٤].

وفي الحديث الشريف:

«تَرَكْتُ فِيكُمْ شَيْئَيْنِ لَنْ تَضِلُّوا بَعْدَهُمَا: كِتَابُ اللَّهِ وَسُنَّتِي، وَلَنْ يَتَفَرَّقَا حَتَّى يَرِدَا عَلَيَّ الْحَوْضَ» (الحاكم).

ثم أمرنا ﷺ وحضنا وحبب إلينا السعي لهداية الناس جميعا إلى نور الإسلام:

«بَلِّغُوا عَنِّي وَلَوْ آيَةً» (البخاري)

«لِيُبْلِغَ الشَّاهِدُ الْغَائِبَ فَإِنَّ الشَّاهِدَ عَسَى أَنْ يُبْلِغَ مَنْ هُوَ أَوْعَى مِنْهُ» (متفق عليه)

«فَوَاللَّهِ لَأَنْ يَهْدِيَ اللَّهُ بِكَ رَجُلًا وَاحِدًا خَيْرٌ مِنْ أَنْ يَكُونَ لَكَ حُمْرُ النَّعَمِ» (متفق عليه).

«يَا أَبَا ذَرٍّ لَأَنْ تَغْدُو فَتُعَلِّمَ آيَةً مِنْ كِتَابِ اللَّهِ خَيْرٌ لَكَ مِنْ أَنْ تُصَلِّيَ مِائَةَ رَكْعَةٍ، وَلَأَنْ تَغْدُو فَتُعَلِّمَ أَبَاً مِنَ الْعِلْمِ عُمِلَ بِهِ أَوْ لَمْ يُعْمَلْ بِهِ خَيْرٌ لَكَ مِنْ أَنْ تُصَلِّيَ أَلْفَ رَكْعَةٍ» (ابن ماجه).

فكانت الدعوة إلى الإسلام هي خير الجهاد، بل هي مناط الجهاد وغايته:

﴿وَجَاهِدْهُمْ بِهِ جِهَادًا كَبِيرًا﴾ [الفرقان: ٥٢]. "به" أي بالقرآن.

وَسُئِلَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ عَنِ الرَّجُلِ يُقَاتِلُ حِمِيَّةً وَيُقَاتِلُ شَجَاعَةً، وَيُقَاتِلُ رِيَاءً، فَأَيُّ ذَلِكَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ؟ فَقَالَ: «مَنْ قَاتَلَ لِيَتَكُونَ كَلِمَةُ اللَّهِ هِيَ الْعُلْيَا فَهُوَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ» (متفق عليه).

عم يتساءلون؟

عندما ينطلق كل منا بهذه الرسالة - التي حملنا بها الله ورسوله - لندعو بها كائنا من كان، ملحدًا أو بوذيًا، أو هندوكيا أو نصرانيا، أو يهوديا أو علمانيا؛ كلا بلغته التي يفهمها، وعلى قدر عقله وعلمه، وبعد أن نعرض عليه قبسا من الجوانب المشرقة لهذا الدين، وروعة كتابه، وحكمة تشريعه، وعظمة رسوله، وخيرية أمته؛ فإن أول ما قد يتبادر منه - إن استمع إليك - أن يسألك أو يتساءل في نفسه: "ما الذي يثبت أن ذلك الهدي القويم وذلك الكلم الطيب الذي تسوقه إليه، أي القرآن الكريم، هو كلام الله كما تؤمنون، وأنه قد أوحى به إلى نبيكم محمد، وليس كلاما ألفه تأليفا، ثم جهر به في قومه؟"

هنا نجيب السائل بما كان ﷺ يجيب به المشركين عندما كانوا يطلبون آية على أن هذا الخطاب، الذي عرفوا له قدره من السمو والرفعة، إنما هو كلام الله حقا. كانوا يطلبون آية وبرهانا، فكانت الآية والبرهان هي القرآن ذاته، كما في قوله تعالى:

﴿أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّا أَنزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءِيتِ فِي ذَلِكَ لَرَحْمَةً وَذِكْرَىٰ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ ﴿٥١﴾ [العنكبوت: ٥١].

ذلك لمن أصغى بقلبه وتدبر بعقله:

﴿أَفَلَا يَتَذَكَّرُونَ الْفُرْعَانَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبِ أَقْفَالُهَا﴾ ﴿٢٤﴾ [محمد: ٢٤].

ثم تحداهم أن يأتوا بمثله:

- ﴿أَمْ يَقُولُونَ نَقُولُهُ، بَلْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ (٣٣) ﴿فَلْيَأْتُوا بِحَدِيثٍ مِثْلِهِ إِنْ كَانُوا صَادِقِينَ﴾ (٣٤-٣٣: الطور).

- ﴿قُلْ لِّئِنْ أَجْتَمَعَتِ الْإِنْسُ وَالْجِنُّ عَلَى أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَتْ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا﴾ (٨٨) ﴿[الإسراء: ٨٨].

- ﴿أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ فَأْتُوا بِعَشْرِ سُوْرٍ مِثْلِهِ مُفْتَرِيْنَ وَادْعُوا مَنْ أَسْتَطْعَمَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ (١٣) ﴿[هود: ١٣].

- ﴿أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ فَأْتُوا بِسُوْرٍ مِثْلِهِ وَادْعُوا مَنْ أَسْتَطْعَمَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ (٣٨) ﴿[يونس: ٣٨].

وقد كان؛ فقد سلموا بعجزهم وأخبتوا إلى دعوة الحق، ودخلوا في دين الله أفواجا: إلا متكبر معاند، أو ضال جاحد قد أصم أذنه وعطل عقله، أو أبحار ورهبان يخشون ضياع مالهم وسلطانهم. فقد استشعر المشركون بسليقتهم اللغوية - ولأول وهلة - أن هذا القرآن ليس بقول بشر - وقد خبروا كلام البشر وهم أهل الفصاحة والبيان. لم يكن الأمر لهم مجرد إعجاب بفصاحة القرآن وجزالة بيانه - وهو أيما جزل وفصيح، ولا مجرد طرب لسماعه وتذوق لحلاوته - وما أحلاه وما أطربه للأذن. فالإعجاب والطرب لا ينشآن وحدهما إيمانا بَلَّةً يقينا، ولا يتجاوزان بالمرء حدود الرضا والإمتاع الوقي الذي لا يلبث أن يزول. وإنما أدركوا بسليقتهم اللغوية أن أسلوب القرآن وسياق الخطاب فيه هو المنبئ والمعلن عن مصدره العلوي، إذ يعلن الله فيه عن نفسه بصيغ المتكلم (مثل: نحن، وإنا، و سنريهم ... إلخ)، ويتكرر ذلك تباعا على امتداد القرآن، وفي الموضع

والمقام المناسب لجلال المتكلم، كما يتوجه الخطاب مرارا إلى الرسول ﷺ مباشرة (بمثل النداء: يا أيها النبي، أو: قُلْ كذا وكذا، أو غير ذلك من الأساليب). فأسلوب وسياق الخطاب في القرآن يثبت أنه ليس كلاما صادرا "من" النبي ﷺ بل هو صادر "إليه من خارجه"، يخاطبه ويخاطب البشر كلهم من علي، ولا دخل للرسول ولا لغيره من البشر كائنا من كان فيه.

وبمثل هذا المنطق المستقيم المباشر، منطق استشعار مصدر هذا القرآن من فحواه وأسلوبه وسياق خطابه، كما سنفصل في هذه الرسالة، دخلت شعوب الأرض لا عربا فحسب، بل شعوبا عجا تنطق بشتى اللغات، دخلت في دين الله أفواجا حين أدركت رويدا رويدا أن هذا القرآن لا يكون إلا من عند الله، يستوي في ذلك عربي تذوق روعة لغة القرآن وإعجاز بيانه، أو أعجمي لم يتذوق شيئا من ذلك.



وتعالوا الآن نفصل بعض الشيء: كيف كان أسلوب الخطاب في القرآن مدخلا وبرهانا للإيمان بأنه كلام رب العالمين؟ سواء بالنظر في نصه العربي أو فيما يفهم من معناه بغيره من اللغات؟

هب أن إنسانا عثر على كتاب منزوعا غلافه، أو مخطوط قديم مجهولا مؤلفه، ثم حاول أن يتبين صاحبه ويتحقق مصدره، فإنه سينظر فيه ليستشرف من سياق الكتاب وموضوعه، ومجرى الخطاب فيه وأسلوبه، ويضاهيه بما يناظره من كتابات الأقدمين والمعاصرين؛ عله يهتدي إلى مَنْ كتب الكتاب؟ وإلى مَنْ كتبه؟ ومناسبة ومكان وزمان تأليفه. وأسلوب المؤلف مرآة تعكس ذاته وقدره وعلمه وخصاله، وكما أن بصمات الأصابع، ثم الشفرة الوراثية، تكشف وتحدد هوية كل إنسان؛ فكذلك الأسلوب ينبئ عن صاحبه ويتعذر على غيره تقليده، وهيهات أن ينتحل كاتب مكان غيره فيصطنع كلاما ينسبه إليه دون أن يفتضح أمره لدى القراء. ولا يتطلب الأمر من القارئ إلا القليل من الفطنة، دون الغوص في أسرار التراكيب اللغوية أو التعمق في التحليل النفسي اللغوي. فما بالك باصطناع كلام القدير خالق البشر العليم؟

ثم تعالوا سويا نتناول النص القرآني ابتداءً بمنهج مماثل، ودون الحاجة إلى التزود بالكثير من الأدوات اللغوية، أو المعارف الكونية والتاريخية،

ودون الغوص في تفسيره وتحليل بلاغته وإعجاز بيانه وتفصيل موضوعاته؛ لتبين ثم نثبت أن أسلوب النص القرآني في حد ذاته - من ناحية سياقه ومجرى خطابه - يقطع بأن المتحدث بهذا النص مصدر خارجي مستقل عن مبلغه ﷺ، وخارجي مستقل عن كل البشر المخاطبين؛ ومن ثم نسلم تسليماً أن ذلك الكلم الطيب - من ألفه إلى يائه - إنما انبثق من مشكاة الخالق العليم الفرد الصمد سبحانه وتعالى.
